الإسلام في تركيا الحديثة

بديع الزمان النورسي

تأليف

شكران واحدة

ترجمه عن الإنجليزية

محمد فاضل

بسم الله الرحمن الرحيم

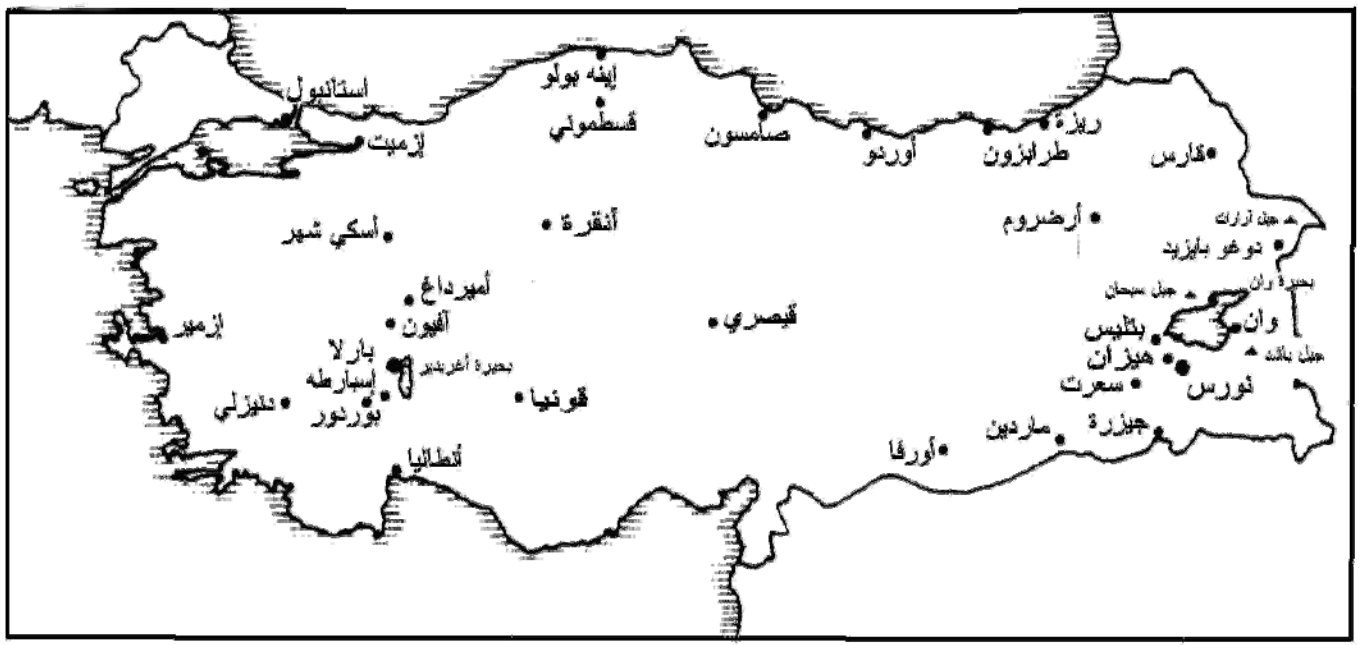

استانبول
إينه بولو
قسطمونى
إزميت
صامسون
أوردو
طرابزون
ريزة
قارص
أسكي شهر
أنقرة
أرضروم
جبل آرارات
دوغو بايزيد
بحيرة وان
جبل سبحان
أميرداغ
أفيون
إزمير
قيصري
وان
بتليس
بارلا
بحيرة أغريدير
هيزان
إسبارطه
سعرت
نورس
دنيزلي
بوردور
قونيا
جزيرة
ماردين
أورفا
أنطاليا

مقدمة

إبراهيم محمد أبو ربيع

لعل سيرة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي التي كتبتها "*شكران واحدة*" تمثل عملاً بارزًا في مجال الدراسات الإسلامية الحديثة ومقارنة الأديان. تتبعت المؤلفة في هذا العمل حياة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي وفكره منذ ميلاده وطفولته في شرقي تركيا وحتى وفاته عام ١٩٦٠. ومن الجدير بالذكر أن براعة الكاتبة في الاستعانة بأمهات المصادر تنأى عن كل شائبة، كما أن استيعابها للتاريخ الحديث الديني والفكري لا يُبارى. تبين المؤلفة أيضاً وبمهارة فائقة أن النورسي أحد المفكرين الإسلاميين الأفذاذ في العصر الحديث، حيث حارب بثباتٍ في سبيل مُثله حفاظا على الإسلام دينًا نشطًا في عالمنا الحديث. وعلى الرغم من إغفال بعض العلماء للنورسي في مناقشاتهم للتاريخ الفكري الإسلامي الحديث، إلا أن أثره على كافة أجيال رجال الفكر الديني التركي في عصر ما بعد الجمهورية كان كبيرًا. ومنذ وفاته عام (١٩٦٠)، أخذ أتباع النورسي على عاتقهم مهمة نشر أفكاره في كافة أنحاء المعمورة.

ونلاحظ وجود كتاباتٍ كثيرة باللغات الغربية عن جمال الدين الأفغاني، والسيد أحمد خان، ومحمد عبده، ورشيد رضا، ومحمد إقبال، وغيرهم من كبار قادة الفكر في العالم الإسلامي. وقد آن الأوان أن يتبوأ النورسي مكانته بين هؤلاء الأعلام، وأن يُنظر إليه كأحد أهم هؤلاء المفكرين. وتكشف دراسة شكران واحدة النقاب بشكل منقطع النظير عن سر استحقاقه لتلك المكانة في الفكر الإسلامي الحديث نظريّاً وعمليّاً.

وكما توضح الكاتبة تفصيلًا في الجزء الأول من هذا الكتاب، يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار النشأة التعليمية والدينية للنورسي في ظل النسق الفكري العثماني خلال القرن التاسع عشر الذي خضع لمجموعة متنوعةٍ من القوى والتيارات الثقافية والفكرية. ويجب أن يقوم فهمنا لتلك الفترة التكوينية التي مر بها النورسي على علوم التراث الإسلامي مثل علوم التفسير، والحديث، وعلم الكلام، والتصوف، وخاصة عندما قام صفوة المفكرين الإسلاميين العثمانيين بتطوير تلك العلوم خلال ذروة المواجهة بين الدولة العثمانية والغرب في القرن التاسع عشر. وقد انشغل الأستاذ النورسي بدراسة العلوم الإسلامية المختلفة كالتفسير، والحديث، والتاريخ ... وغيرها، وأصبح شارحًا فذًّا لها؛ حيث ربطها بمتطلبات ومشكلات العصر الحديث. ومازالت تأملاته الدينية تبث الحماسة في جيلٍ كاملٍ من المسلمين في كافة أنحاء العالم.

ويظهر النورسي في الترجمة التي كتبتها شكران واحدة كعالم دينٍ يتقد نشاطاً، ذي رؤية صلدة لتوحيد العالم الإسلامي المفتت. وقد امتدت أنشطته الفكرية والدينية عبر ستة عقود تقريباً من الحياة المثمرة، رغم أنه قضى أعوامًا من حياته في السجن خلال فترة تأسيس الجمهورية في تركيا. إن حياة النورسي قصة تاريخية جليلة، لا تجسد حياة الأمة التركية فحسب، بل والأمة الإسلامية في العصر الحديث على السواء. وفي هذا الإطار، نجد الكثير من الدروس والعبر التاريخية العظيمة التي يمكن أن نستمدها من حياة النورسي؛ حيث نشأ وانتقل من الريف الواقع في الجزء الشرقي من الإمبراطورية العثمانية إلى مدينة استانبول النابضة بالحياة.

إن حياة النورسي وكتاباته تجعلنا ننظر نظرةً عميقة في فترة ما بعد التنظيمات في الإمبراطورية العثمانية، وأزمة العلماء التقليديين، وفشل حركة الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر في تقديم "حل إسلامي" في مواجهة رياح التغريب، والنظريات الفلسفية والسياسية القوية التي تؤيد قيام قومية علمانية في تركيا، وإلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤، ودولة الإسلام في تركيا مع ظهور كمال أتاتورك. إن رائعة النورسي *رسائل النور* (والتي سنشير إليها من

الآن فصاعدًا *بالرسائل*) قد كتبها على مدار ستة عقود، وتوضح هذه الرسائل دائرة نشاطه الفكري والديني. ويعكس هذا العمل أيضًا التحول المؤسسي والفكري الكبير لتركيا من إمبراطورية تحمل بين ثناياها مزيجًا من اللغات والأعراق والأديان إلى جمهورية علمانية. إن هذا التغير الهائل لم يأتِ فجأةً ولكنه حدث تدريجيًّا منذ بداية القرن التاسع عشر على الأقل.

وانطلاقًا من هذه الخلفية، تتتبع شكران واحدة فترتين من حياة النورسي المعقدة، الفترة العثمانية والفترة التركية، وتلقي الضوء على القوى السياسية والاجتماعية والدينية المختلفة التي أثرت على تفكيره خلال هاتين الفترتين. ففي الفترة العثمانية، كان النورسي على وعي تام بحالة الضعف والانحدار المستمر التي تمر بها المؤسسات العثمانية، وهو ما حاول إيقافه باستماتة. وقبل الحرب العالمية الأولى، كان النورسي يرى أن إحياء الإمبراطورية العثمانية هو إحياء للإسلام نفسه ولقدرته على التصدي للتغيرات الهائلة التي تحيط بالحياة العثمانية. وهنا، يمثل النورسي جهود صفوة المفكرين المسلمين المستنيرين الذين أدركوا منذ الوهلة الأولى أن إصلاح المؤسسات العثمانية مع بدايات القرن التاسع عشر كان هو سر بقاء الإمبراطورية العثمانية في العصر الحديث الذي يموج بالاضطرابات السياسية. ومع ذلك، غيرت الحرب العالمية الأولى وما تلاها كل شيء، ويمكننا أن نرى تلك التغيرات متمثلة أمامنا في كفاح النورسي نفسه. وبينما كان النورسي يحاول مواصلة كفاحه بالطرق السياسية والعسكرية ليوقف انحدار الإمبراطورية قبل هزيمة الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، إلا أنه أصبح بعد الحرب على قناعةٍ تامةٍ أن الإسلام نفسه كان في خطر. لذلك، بدأ يركز جهوده في المحافظة على روح الإسلام والعقيدة في المواقف الاجتماعية والسياسية التي تشهد تغيرًا سريعًا.

ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في حياة النورسي الدينية في مرحلة ما بعد العثمانيين أو مرحلة الجمهورية التركية. ففي هذا الوقت، كان النورسي يريد التضحية بحياته في سبيل ما اعتبره حفاظًا على الإسلام في بيئة شديدة العلمانية. ولعل أهم جزء من حياة النورسي العملية – كما تم الرجوع إليه بعد

عقود من وفاته - كان التحدي الفكري والديني للنظام العلماني والقومي الذي أسسه كمال أتاتورك؛ وهو التحدي الذي يشكل محور *الرسائل*. ورغم ذلك، لم يترجم النورسي هذا التحدي في صورة ثورة مفتوحة ضد النظام في أي مكان أو زمان. وبعد تأسيس الجمهورية التركية، بدا أنه قد أقنع نفسه بفكرة أنه يمكن العمل للإسلام في ظل النظام العلماني التركي طالما أن أسس العقيدة الإسلامية لم تكن تهددها الدولة.

إن شكران واحدة تسجل آلام النورسي وآماله خلال فترة الجمهورية التركية بقدر كبيرٍ من التفصيل. وعلى الرغم من المحاكمات والابتلاءات التي تعرض لها، إلا أنه لم يتوقف عن الدفاع عن الوحدة الإسلامية كوسيلة لمواجهة التحديات المعقدة للقرن العشرين. ونستطيع أن نقول إن النورسي قد استرشد بالمشاكل التي ظهرت في العالم الإسلامي وكذلك بالتراث الضخم من التقاليد الإسلامية الراسخة، فقد كان على وعي تام بأهمية الحفاظ على التقاليد الإسلامية في العصر الحديث. في نفس الوقت، تناول بجدية قضية الحداثة وكيفية تأثيرها على المجتمعات الإسلامية في القرن العشرين. ولهذا، لم يكن فهم النورسي للمسيحية يعكس مزاياها الدينية ولكنه كان تأملًا لدور المسيحية في الحداثة. وقد دافع النورسي عن نوع من التقارب بين الغرب المسيحي والإسلام؛ حيث أدرك أن الإسلام لم يكن جزيرة منعزلة على نفسها ولكنه نشأ متفاعلًا مع آراء العالم الأخرى ومجتمعاته.

ويظهر جليًّا في هذه الترجمة مفاهيم النورسي الخاصة بالهوية الإسلامية في العصر الحديث، وكيف يمكن أن تحيا علوم التراث الإسلامية لكي تلقي بالضوء على قضايا القوة والسلطة، والحداثة والتقاليد، وكيف ترتبط هذه العلوم الإسلامية بهذه الحياة والحياة الآخرة. وكان إحياء الأخلاق الإسلامية في عالم شديد العلمانية أحد الاهتمامات الأساسية التي شغلت بال النورسي. لقد آمن النورسي إيمانًا راسخًا بأنه من الممكن أن تتعايش الروح الإسلامية مع الحياة العصرية، وأن يمارس المسلمون إسلامهم دون اللجوء إلى السلطة السياسية.

وفي هذه النقطة، كان فكر النورسي الإسلامي كما تبلور في كتابات ما بعد العصر العثماني، مغايراً مع فكر العديد من المفكرين الإسلاميين في تلك الفترة، حيث إن معاصريه من أمثال محمد إقبال، والعلامة المودودي، وحسن البنا، وسيد قطب قد دافعوا بطريقةٍ أو بأخرى عن إحياء "الإسلام كسياسة" وليس "كعقيدة" فقط. وبعد الحرب العالمية الأولى، لم يعد النورسي مهتمًّا بالسياسة كوسيلة لحماية الإسلام؛ حيث اعتقد أنه يمكن القيام بذلك دون اللجوء إلى رجال السياسة ولا إلى"عالم السياسة". ومن هنا يمكن أن نقول إن النورسي لم يجذب انتباه الغرب كثيرًا لأنه لم يدافع عن "الإسلام السياسي" في حد ذاته. ومع ذلك، يبدو وجود اهتمام جديد بعمل النورسي، خاصة بين علماء الغرب المهتمين بالروحانيات، ومقارنة الأديان، وقضية الدين والحداثة بشكل عام.

إنه لمن الأهمية بمكان أن نفكر دائمًا فيما إذا كان يمكن حفظ الإسلام بمعزل عن السياسة. بمعنى آخر، هل نريد دولةً إسلاميةً حتى نؤسس العقيدة الإسلامية أو ننشر الأفكار الإسلامية. في الحقيقة، يبدو أن إجابة النورسي بعد تأسيس الجمهورية التركية كانت بالنفي، أي إن الإسلام يمكن أن يزدهر بدون دولة إسلامية. وفي حقيقة الأمر، كتب النورسي أن الإسلام وعقيدة الغالبية في العالم الإسلامي سوف تتحسن عندما تتركهما القوى الموجودة وشأنهما.

إن شكران واحدة تساعدنا من خلال إلقاء الضوء على حياة النورسي وفكره، على فهم جماعة النورسي المعاصرة والتي يمكن أن نجدها منتشرة عبر أنحاء تركيا، وفي أجزاء مختلفة من العالم وفي أوروبا وأستراليا بشكل ملحوظ. وتتخذ جماعة النورسي من أخلاق القرآن كما فسرها النورسي وسار على دربها، مرشدًا لهم بشكل أساسي. ولا شك أن النورسي كان شخصيةً كاريزمية؛ فمنذ وفاته عام ١٩٦٠، ينعت الكثير من القراء نصه بالكاريزما. ومع ذلك، وكما توضح شكران واحدة أن الرسائل لم يقصد منها أن تكون بديلًا للقرآن، بل على العكس، فهي تفسير للقرآن في ضوء العلوم الحديثة والتحديات الهائلة التي تؤثر على العالم الإسلامي الحديث.

إن شكران تقدم صورة مستنيرة ورائعة عن النورسي وتركيا الحديثة، حيث تستخدم كل المصادر المناسبة لرسم صورة مفصلة وحقيقية قدر الإمكان، ولقد نجحت في بلوغ ذلك باقتدار. وفوق كل ذلك، فقد جعل منها ولاءها الشديد للموضوع، المرجعية الدولية الرائدة في هذا المجال. ويجب أن نهنئها على ذلك.

الجزء الأول

سعيد القديم

الفصل الأول

الطفولة والشباب

المولد والطفولة المبكرة

تقع قرية "نورس" على امتداد سفح المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال "طوروس" الهائلة جنوبي بحيرة "وان" بإقليم "بتليس" شرقي الأناضول، وينحدر واديها العميق عبر الجبال في "خيزان"، أقرب المدن إلى قرية "نورس"؛ فهي تبعد نحو عشر ساعات سيرا على الأقدام. وحتى مطلع الثمانينات من القرن العشرين، لم يكن هناك طريق يؤدي إلى القرية سوى ذلك الطريق الذي يجتاز الوادي، ويمر خلاله نهر متدفق يتاخم الحد الجنوبي للقرية. وتتميز القرية بالحياة النباتية الغنية، والخضرة الهائلة حيث يكسوها وادٍ من الأشجار مثل الجوز والحور والبلوط، وتضفي الحدائق الغناء وأشجار الفاكهة تباينا جميلا على المنحدرات المقفرة التي تنحدر من أعلى إلى أسفل. وقد تراصت بيوتها المبنية من الأحجار المزخرفة بطريقة غير منتظمة، تتجمع في مواجهة المنحدر، وتنعم بظلال الأشجار. وقد شهد أحد هذه البيوت المتواضعة ذات النوافذ الصغيرة والأسقف القشية، مولد سعيد النورسي في عام (١٨٧٧)[١] ليكون الابن الرابع بين سبعة أبناء. وقد كان لوالده "ميرزا" قطعة أرض صغيرة تشبه الأراضي المزروعة الآن. ويظل مسقط رأس سعيد النورسي أيضا كما هو لا يتغير، ولا يسكنه سوى أقاربه البعيدين.

كان والده "ميرزا" ورعا يُضرب به المثل، وكان يطلق عليه "الصوفي ميرزا" تعبيرا عن انتمائه للطريقة الصوفية أو دلالة على تقواه،[٢] بينما كانت زوجته

---

(١) ليست هناك معلومات مؤكدة عن التاريخ الحقيقي الذي ولد فيه بديع الزمان النورسي، ولكن معظم المصادر المتاحة تقول إنه ولد عام (١٨٧٧).

(٢) إنه يحدد في كتاب Bruinessen, *Agha, Shaikh and State*, 247، أنه كان في كردستان الشخص المبجل الذي يرشد أتباع الطريقة النقشبندية.

تدعى "نورية"، وربما "نور" أو "نورا"[٣] وفقا لما أورده أحد كتاب السير. وكان أبواه من السكان الأكراد الذين استوطنوا تلك المنطقة الجغرافية التي كان العثمانيون يطلقون عليها كردستان.[٤] أما أسرة سعيد النورسي كما جاء على لسانه فقد كانت أسرة بسيطة ليس لها من الأنساب ما تفخر به.[٥] ووفقا لما ذكرته بعض الروايات، كان الجيل الذي ينتمي إليه "ميرزا" هو الرابع بين سلالة تنحدر من أخوين أرسلا إلى "جزرة" التي على نهر دجلة من أجل الوعظ بها[٦]. ومن المحتمل أن يكونا من أفراد فرع الخالدية التابع للنظام النقشبندي الذي انتشر سريعا في المنطقة إبان القرن التاسع عشر،[٧] رغم أن هذا يعني أن ميرزا كان يمثل الجيل الثاني على أقصى تقدير. أما أمه "نورية" فقد كانت من قرية "بلكان" التي تبعد عن قرية نورس ثلاث ساعات.

كانت كبرى بنات الأسرة هما درية وخانم، وقد ذاع صيت الأخيرة بعد ذلك لما حظيت به من علمٍ ومعرفةٍ بأمور الدين، كما تزوجت من الملا (معلم) كان يحمل نفس اسم أخيها الملا سعيد. وقد ذهبوا إلى المنفى الاختياري في دمشق في أعقاب حادث "بتليس" في عام (١٩١٣)، وماتوا أثناء الطواف بالكعبة في عام (١٩٤٥)،[٨] أما الطفل الثالث عبد الله، فقد كان عالما هو الآخر، كما يعد الأستاذ الأول لسعيد، وقد توفي عبد الله عام ١٩١٤. أما الذي يأتي بعد سعيد في الترتيب فهو الملا محمد الذي كان يعمل بالتدريس في المدارس الدينية في قرية "أرواس"[٩] التي لا تبعد كثيرا عن نورس، ثم يأتي عبد المجيد

---

(٣) Badıllı, *Nursi,* 1: 71-72.

(٤) انظر: Bruinessen, *Mullahs, Sufis, and Heretics*

(٥) قال النورسي في حديث خاص، إنه كان شريفا، أي أنه ينحدر من سلسلة نسب النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– انظر: صالح أوزجان في Şahiner, *Son Şahitler,* 3:238؛ ومحي الدين يوروتن Şahiner, *Son Şahitler,* 3:201؛ حسين آقصو Şahiner, *Son Şahitler* 4:489-490. نقل كل من المصدرين الأول والثاني قول النورسي: إن والديه ينحدران من سلالة الأشراف. قال بديع الزمان لصالح أوزجان إن والدته يرجع نسبها إلى "الحسين"، أما والده فيرجع نسبه إلى "الحسن". ولكن لم تُعرف عائلته بأنها من الأشراف.

(٦) Şahiner, *Nurs Yolu,* 68; Badıllı, *Nursi,* 1:43

(٧) Şahiner, *Nurs Yolu,* 68; Badıllı, *Nursi,* 1:43

(٨) Şahiner, *Bilinmeyen* 320؛ الشعاعات ص٢٠٨.

(٩) Şahiner, *Nurs Yolu* 2, 153

الذي ظل لسنوات طويلة يتتلمذ على يدي أخيه الأكبر سعيد. وقد كان السبب الرئيسي وراء شهرته وذيوع صيته هو ترجمته لمؤلفين من مؤلفات شقيقه سعيد النورسي من اللغة العربية إلى اللغة التركية. وقد توفي في قونيا عام ١٩٦٧، ولا نعرف شيئا عن أخته مرجان أصغر أفراد الأسرة. وقد ماتت الأخت الكبرى دريه، أم عبيد، أحد طلاب سعيد، غرقا في النهر في قرية نورس عندما كان "عبيد" طفلا صغيرا.

توفي "ميرزا" في العشرينات ودُفن في مقبرة قرية "نورس". بينما لم يرَ سعيد أمه منذ مغادرته لمنزل الأسرة سعيا لاستكمال دراسته، وقد ماتت أثناء الحرب العالمية الأولى ودُفنت أيضا في "نورس". وقد قال سعيد بعد ذلك بسنوات: "لقد تعلمت من أمي العطف والحنان، بينما تعلمت من أبي الترتيب والنظام".

قضى سعيد سنوات عمره الأولى مع أسرته في "نورس"، حيث كان يقضي ليالي الشتاء الطويلة في القرية، بينما كان يقضي مواسم الصيف القصيرة في المراعي العالية أو في الحدائق التي تمتد على طول المنحدرات المنخفضة وضفاف النهر في أصل الوادي، وكان موسم الزرع قصيرا، لكنه كان كافيا للوفاء باحتياجات المزارعين. لقد كانت حياة تقترب بشدة من العالم الطبيعي، حياة تتناغم مع إيقاعاته وأفلاكه، حياة حافلة بالعجائب بالنسبة لطفل واعٍ سريع الاستجابة مثل سعيد، كان سعيد فطنا على نحوٍ يعجب له العقل، دائم التقصي في حقائق الأشياء، ويظل يسأل ويلتمس أجوبة للأسئلة التي تجوب عقله. وقد وصف سعيد بعد ذلك بعدة سنوات كيف يمكن أن يتحول المجاز القائم على العلم إلى نوع من الخرافة بقوله: "إذا وقع المجاز من يد العلم إلى يد الجهل". وقد وصف النورسي نفسه حادثة توضح هذا الأمر بقوله:

"ذات ليلة سمعت الأسرة صوت تصادم القدور ببعضها البعض، وإطلاق أعيرة نارية، فهرولت الأسرة إلى خارج البيت لتجد أن هناك خسوفا للقمر، وهنا سأل سعيد أمه: "ما هذا الذي حدث للقمر؟"

فأجابته: "ابتلعته الحية"

فقال لها سعيد: "لكنه لا يزال يرى؟"

فأجابته: "إن الحيات في السماء شفافة كالزجاج؛ تشف عما في بطنها."[١٠]

ولم يتسنَّ لسعيد معرفة الإجابة الحقيقية على سؤاله إلا بعد سنوات عندما شرع في دراسة علم الفلك.

كان سعيد لا يتوانى ما سنحت له الفرصة، خاصة في ليالي الشتاء الطويلة عن القيام برحلةٍ مضنية إلى الكتاتيب بالقرى المجاورة للاستماع إلى مناقشات الشيوخ والطلاب والمعلمين. وقد كان لهذا أثر واضح على تكوين شخصية النورسي وما قام به من أنشطة في المستقبل. ونجد في كتابات النورسي بعد ذلك ما يدل على كيفية تأثره بحياة أهل المنطقة العاملين على إحياء الطرق النقشبندية والخالدية، والتي ذاع صيتها في القرن التاسع عشر نتيجة تأكيدها على التعليم الديني، ولا سيما دراسة الفقه،[١١] والأنشطة الخيرية أكثر من تأكيدها على البحث عن المعرفة الصوفية، لتحل محل الطريقة القادرية، وتنشئ العديد من المدارس الدينية والتكايا التي أصبحت مراكز لنشر العلوم الدينية التقليدية.[١٢] ويصف شريف ماردين إقليم "خيزان" على أنه "مكتظ" بالمدارس.[١٣] ويمكن أن يوضح ذلك ببساطة كيف يمكن لقرية صغيرةٍ منعزلة مثل "نورس" التي يعيش أهلها على بعض الزراعات البسيطة غير الموسمية أن تخرج في جيل سعيد هذا الكم الهائل من معلمي الدين وطلابه وعالما في منزلة سعيد. وقد كتب في منتصف الأربعينيات يقول:

> "لقد ظهر الكثير من الطلاب والمعلمين والعلماء في منطقة "خيزان" على يدي الشيخ عبد الرحمن تاغي. إنني على يقين من أن كل كردستان تفخر بهم، وبمناقشاتهم الدينية، وبعلمهم الواسع، وبطريقتهم الصوفية. هؤلاء هم الذين يمكنهم غزو البسيطة برمتها. لقد اعتدت وأنا في التاسعة أو العاشرة أن أصغي إلى

---

(١٠) النورسي، اللمعات ص١٣٨؛ صيقل الإسلام، المحاكمات ص ٤٠؛ Şahiner, *Bilinmeyen* 47

(١١) انظر: Algar, *Political Aspects of Naqshbandi History*, 131

Mardin, *Nakşibendi Order in Turkish History*

(١٢) انظر الأمر المتعلق بالطريقة القادرية في: *Journal of the History of Sufism* 1-2, 2000، التي نشرتها دار نشر Simurg باستانبول.

(١٣) Mardin, *"Nursi,"* 75 ؛ وانظر ايضا: Bruinessen, *Agha, Shaikh and State*, 223

حديثهم عن مشاهير العلماء، والأولياء، والمتعلمين، والروحانيين. وطالما اعتقدت أن هؤلاء الطلاب والدارسين قد حظوا بقدر هائلٍ، وتمكنوا من العلوم الدينية حتى يمكنهم التحدث بهذا الشكل. وإذا كان أحدهم أقل ذكاء من الآخرين، فإنه كان يُعامل معاملة كريمة. وكان يحظى بتقدير كبير ومنزلة رفيعة كل من يثبت رجاحة رأيه في إحدى النقاشات أو المناظرات. لقد تملكتني الدهشة؛ حيث كان ينتابني نفس الشعور".[١٤]

أجل، لقد كان رجحان رأيٍ على آخر في المناقشات أمر يروق لسعيدٍ الصغير. علاوة على ذلك، حاول سعيد - فضلا عن تمتعه بالاستقلال الذهني- منذ سنوات عمره الأولى أن يكتشف طريقا غير الذي سلكه هؤلاء ممن حوله، وهو ما توضحه مقولته التالية:

وفي حوالي الثامنة أو التاسعة من عمري وجميع الأهلين وأقاربي ينتسبون إلى الطريقة النقشبندية ويستمدون من شيخ مشهور هناك هو الغوث الخيزاني،[١٥] كنت على خلافهم أقول: أيها الشيخ الكيلاني![١٦] أقرأ لك سورة الفاتحة فأوجد لي ما ضيعته من جوز مثلا أو أي شيء تافه آخر. وإنه لأمر عجيب فوالله لقد أمدني الشيخ بدعائه وهمته ألف مرة. ولهذا ما قرأت من أوراد وأذكار طوال حياتي إلا وأهديتها أولا إلى حضرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ثم إلى الشيخ الكيلاني، إلا أن الانشغال بالعلم كان يعيق الاشتغال بالطريقة الصوفية.[١٧]

وعلى الرغم من عدم انضمام سعيد للطريقة الصوفية كما مر سابقا، بل ووصفه للصوفية فيما بعد بأنها لا تستجيب لاحتياجات العصر الحديث، إلا أن علاقته الوطيدة بالشيخ عبد القادر الكيلاني استمرت طوال حياته؛ فقد تلقى منه النورسي العون والتمس منه الارشاد بما له من أثر عظيم.

---

(١٤) النورسى، الملاحق: ملحق اميرداغ -١، ص٣٥٣

(١٥) كان الغوث في "خيزان" لقبا للشيخ سيد صبغة الله الأراوسي، خليفة خالد الجزاري، والذي كان خليفة لمولانا خالد. Bruinessen, *Agha, Shaikh and State*, 324, 337، اشتهر الغوث بأنه أكبر المشايخ المعاصرين، ودفن في قرية "غيدا"، بالقرب من "خيزان". Şahiner, *Son Şahitler*. 1:22-24.

(١٦) لمزيد من المعلومات عن السيرة الذاتية لعبد القادر الكيلاني (١٠٧٧-١١٦٦)، Trimingham, *The Sufi Orders of Islam*, 40-44، وفقا لهذا الكتاب، لم يكن هو نفسه مربيا صوفيا؛ ولكنه كان واعظا وداعية ثبتا، والطريقة القادرية تطورت بعد وفاته بفترة.

(١٧) النورسى، سيرة ذاتية، ص:٤١.

سعيد يبدأ دراساته

بدأ سعيد دراسته وهو في سن التاسعة بتعلم القرآن الكريم.[١٨] وبدا في هذه السن طفلا مشاكسا يميل للنزاع مع أقرانه ومع من هم أكبر منه، ولكن هذا الميل كان ناتجا عما كان يشعر به من عدم قدرته على إثبات ذاته حتى الآن وعدم قدرته على التفاعل فكريّا مع معلميه أو زملائه.

وقد ساقته حالته الروحية وفطنته غير المسبوقة لطفل في التاسعة من عمره إلى مراقبة ما يستفيضه أخوه الكبير عبد الله من العلوم فأعجب بمزاياه الراقية وتكامل خصاله الرفيعة بتحصيله العلوم، وشاهد كيف أنه بزَّ أقرانه في القرية وهم لا يستطيعون القراءة والكتابة. فدفعه هذا الإعجاب إلى شوق عظيم جاد لتلقي العلم؛ لذا شدَّ الرحال إلى طلبه في القرى المجاورة لنورس حتى حطها في قرية "تاغ"، بالقرب من ناحية "إسپاريت"، وعلى بُعد ساعتين سيرا على الأقدام من قرية "نورس"، عند مدرسة الملا محمد أمين أفندي إلَّا أنه لم يتحمل المكوث فيها بسبب شجار حدث بينه وبين أحد التلاميذ يدعى محمدا، فتركها.

ولاعتزازه الشديد بنفسه وهو لا يزال طفلا، لم يكن يتقبل أن يأمره أحد أو أن يشعر بأن أحدا يتحكم فيه بأي شكلٍ من الأشكال، عاد إلى قريته نورس، وقال لوالده إنه لن يلتحق بأية مدرسة أخرى حتى يصبح أكبر سنّا؛ لأن كل التلاميذ هناك أكبر منه سنّا. ولأن قرية "نورس" كانت صغيرة وكانت محرومة من كتّاب أو مدرسة لتلقي العلم، اكتفى بدرس واحد في الأسبوع يدرِّسه إياه أخوه الكبير الملا عبد الله في أثناء زيارته الأسبوعية للعائلة.

يصف النورسي فيما بعد تلك الفترة من حياته قائلا:

"كنت أتمتع بروح معنوية تتسم بالفخر و الاعتزاز، يومها كنت في العاشرة من عمري، بل أحيانا كنت أحب المدح والثناء؛ فكنت أتقلد طور بطل عظيم ورائد كبير وصاحب عمل عظيم خلاف رغبتي. فكنت أقول لنفسي:

ما هذا الظهور والاختيال! ولا سيما بالشجاعة، أنت لا تساوي شروى نقير؟ فكنت حائرا وجاهلا بالجواب!

ولكن منذ شهرين (١٩٤٤)، أجيبت تلك الحيرة، بأن رسائل النور كانت تُشعر

(١٨) المصدر السابق ص ٤٣.

بنفسها بحس مسبَق. أما أنت فلست إلا بذرة صغيرة لا تساوي شيئا ولكن لإحساسك قبل الوقوع تعدّ تلك العناقيد الفردوسية رسائل النور كأنها ملكك، فتزهو وتتباهى.[١٩]

استمر سعيد في هذه الحالة لمدة عام، ثم عاد لاستئناف دراسته بشكلٍ منتظم. ولم تجد تساؤلاته أية أجوبة عند أي من مدرسيه أو في المدارس التي التحق بها. ذهب أولا إلى قرية "برمس"، ومن بعدها إلى مراعي "خيزان"، حيث ذهب ليتعلم من الشيخ سيد نور محمد النقشبندي. ولرفضه التحكم به تشاجر في قرية برمس مع أربعة من الطلاب؛ حيث اتفق هؤلاء الأربعة على مشاكسته باستمرار مما دفعه إلى المثول بين يدي الشيخ سيد نور محمد شاكيا إليه هؤلاء الأربعة قائلا باعتزاز: "أيها الشيخ المحترم! أرجو أن تقول لهؤلاء ألا يأتوا للشجار معي جميعا فليأتوا مثنى مثنى! انشرح الشيخ سيد نور محمد من هذه الرجولة المبكرة في سعيد الصغير، الذي يبلغ من العمر عشر سنوات، وقال ملاطفا: أنت تلميذي، لن يتعرض لك أحد. وبعد هذه الحادثة أُطلق عليه "تلميذ الشيخ".[٢٠]

ظل سعيد في هذه المدرسة مدة، ثم تركها وذهب مع أخيه الملا عبد الله إلى قرية "نورشين". وبما أنها كانت فترة الصيف، تركوا القرية مع القرويين والتلامذة الآخرين قاصدين "مراعي شيخان". وذات مرة، تشاجر سعيد مع أخيه الكبير، فغضب محمد أمين أفندي، شيخ مدرسة "تاغ"، من سعيد وسأله عن سبب خلافه مع أخيه. ولكن سعيد لم يهتم بسلطة المدرس أيضا وأجابه قائلا إن المدرسة ملك الشيخ الكبير عبد الرحمن تاغي، وأن أخاه طالب مثله ولا يحق له أن يقوم بدور المدرس عليه. بعد ذلك، انتقل إلى قرية "نورشين"، مارّا بغابة كثيفة كان يصعب المشي فيها ولو نهارا، ومنها ذهب إلى قرية "قوغاق".

تتميز هذه القرية بثقافتها الكلامية وبنيتها الاجتماعية التي يسيطر عليها المشايخ، والأغوات، وزعماء القبائل، كما تتميز بالقصص الكثيرة المنتشرة بين الناس عن الأولياء والرموز الدينية، ومعظم هذه القصص مختلقة. وكان العديد

(١٩) النورسي، الملاحق: ملحق اميرداغ -١، ص٢٥٣.
(٢٠) النورسي، سيرة ذاتية، ص: ٤٤.

من هذه الروايات عن سعيد النورسي، بعض هذه الروايات رواها الباحثون من خلال طرق السند. والرواية التي تتحدث عن المرحلة الأولى من دراسته رواية صحيحة، فقد كتبها ابن أخيه ثم بعد ذلك كتبها تلامذته المقربون تحت إشرافه، وأقر بصحتها شهود كثيرون. ولهذا ففحوى الروايات التي حكيت عنه تعتبر صحيحة، حتى وإن اختلفت تفاصيلها من رواية لأخرى، فأحيانا كانت هناك روايات مختلفة حول واقعة واحدة، فالبعض متعلق بخدماته المستقبلية في سبيل الإسلام، والبعض الآخر يعرض علمه وفضائله، وهناك من يُرجع مميزاته تلك إلى صلاح أبويه وتقواهما.

إحدى هذه الروايات حكاها النورسي بنفسه، وتتعلق بأول يوم ذهب فيه إلى المدرسة - وهي مدرسة تاغ – حيث يذكر كيف أن صاحب المدرسة الشيخ عبد الرحمن التاغي (١٨٨٦-١٨٨٧) كان مهتمّا بشكلٍ خاص بالتلاميذ من قرية "نورس". في الشتاء، كان يستيقظ ليلا ليتأكد من أنهم متدثرون جيدا حتى لا يصابوا بالبرد. بالإضافة إلى أنه اعتاد أن يقول لتلامذته القدامى: "أولوا اهتماما بتلاميذ قرية نورس، فيوما ما سيبعث أحدهم الحياة في دين الإسلام، ولكنني لا أعرف الآن من هو هذا الذي سيقوم بذلك".[٢١] وهناك احتمال أن يكون صاحب هذه الكلمات شيخ آخر غير عبد الرحمن التاغي، حيث إنه قد انتقل لقرية "نورشين" قبل ذلك بسنوات.

هناك أيضا قصة شهيرة تصف ورع أبيه "ميرزا" وأمه "نورية"، عندما اندهش أحد مدرسيه من قدراته وهو صغير وأراد أن يقابل والديه، فأخذ مجموعة من تلامذته وذهبوا معا في رحلة استغرقت ستا أو سبع ساعات إلى قرية "نورس". وبعد وصولهم بفترةٍ قصيرة، ظهر "ميرزا" وخلفه بقرتان وثوران مكممة أفواهها، وبعد المقدمات، سأل معلم سعيد أباه عن السبب في ذلك، فأجاب ميرزا بتواضع: "سيدي، حقولنا مفتوحة ومليئة بالخيرات، وفي طريقي أمر بحقول وحدائق الآخرين، فإن لم تكن هذه الحيوانات مكممة الأفواه فإنها من الممكن أن تأكل من محاصيلهم، فأكمم أفواهها حتى لا يشوب رزقنا شيء من الحرام".

(٢١) Badıllı, *Nursi,* 1:84

فلما رأى الشيخ صلاح والد سعيد، سأل والدته: ما طريقتك في تربية أولادك حتى حازوا هذا الذكاء النادر؟ أجابت: لم أفارق صلاة التهجد طوال حياتي إلا الأيام المعذورة شرعا. ولم أُرضعهم إلا على طهر ووضوء.

هكذا علم مدرس سعيد ما جاء ليعرفه. حتما، أبوان كهذين يكون هذا ابنهما.[٢٢]

استقلال سعيد الشاب

في ذلك الوقت في شرقي الأناضول، كان الدارسون، الذين أكملوا دراستهم في إحدى المدارس الدينية وأثبتوا إتقانهم للعلوم التي درسوها، يحصلون على الإجازة ومن ثم يفتحون مدرسة دينية في إحدى القرى التي يختارونها، وإذا كان هذا الشخص قادرا ماديّا، يتكفل باحتياجات الطلاب من الطعام والتدفئة والملابس، أما إذا كان غير قادر، يقوم أهالي القرية بتوفير هذه الاحتياجات، إما عن طريق دفع الزكاة أو بطريقة أخرى. وكان المدرس لا يطالب بأي أجر مادي لقاء بتدريسه.

ولم يكن سعيد الجديد يقبل أية زكاة أو صدقة؛ فقد كان يرى أن قبوله للمساعدة المالية من الآخرين يعني التزامه نحوهم، الشيء الذي كان يمثل عبئا نفسيّا عليه لا يستطيع أن يتحمله.

ذات مرة، ذهب رفاقه من الطلبة إلى القرى المجاورة من أجل جمع الزكاة، ولكنه لم يذهب معهم. ولكن أهالي القرية، الذين أثار إعجابهم موقفه هذا واعتزازه بنفسه، قاموا بجمع مبلغ من المال وحاولوا أن يعطوه له. ومع الأخذ في الاعتبار القدر الكبير من الفقر والحرمان الذي كانت تعاني منه هذه المنطقة،[٢٣] فقد كان ذلك بمثابة إيماءة طيبة، ولكن سعيد شكرهم ورفض قبول هذا المبلغ. وعليه قام أهالي القرية بإعطاء هذا المبلغ من المال إلى الملا عبد الله أملا في إقناعه بقبول المال. وتبع ذلك الحوار التالي:

قال سعيد: "اشترِ لي بندقية بهذا المال!"

---

(٢٢) للحصول على قصة مشابهة تثبت هذا، انظر، Badıllı, *Nursi,* 1:78

(٢٣) Clay, *"Labour Migration and Economic Conditions,"* 3-4